مرةً أخرى ،،،

الإستحالة السرية والإستحالة الجوهرية

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

الاستحالة الجوهرية[١]

Transubstantiation

المعارك الجانبية المفتعلة:

مندهشٌ أنا من هجوم هواةٍ بلا تخصص، سوى ما جستير في استعمال الميكروفون وإثارة البسطاء.

وقد ازدادت دهشتي وتعجبتُ أكثر من كبوة فارس نبيل شهم، كانت له مواقف رجولية في زمان الاستبداد الذي انعدمت فيه الرجولة، فقرر -منفرداً- الإضراب عن الطعام لينال عمال النظافة (الفرَّاشين) الأجر الذي يحفظ لهم كرامتهم الإنسانية، واعتصم بكنيسة الأنبا رويس الأثرية، ودفع ثمن الشهادة بعد ذلك. هذا هو أُستاذنا د. موريس تاوضروس الذي حاول الأنبا شنودة الثالث منعه من تدريس العهد الجديد، وتحويل حصص العهد الجديد للقمص بطرس جيد، وجاء الاعتراض من أكثر من مدرس من مدرسي الإكليريكية، بأن جناب القمص لا يعرف اليونانية، وهي لغة العهد الجديد، الأساس اللغوي لكل ما يُقال أو يُكتب عن أسفار العهد الجديد.

غير أنه عندما يدافع د. موريس -في محاضرة له بمركز دراسات الآباء بالقاهرة بعنوان "المسيح على مائدة العشاء" بتاريخ ٧ ديسمبر ٢٠١٥- عن تعليم الكنيسة الكاثوليكية في خصوص الاستحالة الجوهرية قائلاً بأنه ذات تعليم الكنيسة الأرثوذكسية، فإن ثلاثة أخطاء فادحة لا يمكن أن تقابَل بالصمت:

---

(١) راجع مقالنا: الاستحالة السرية والاستحالة الجوهرية، المنشور على هذا الموقع بتاريخ ٢٥ يوليو ٢٠١٤ رداً على مقال الأستاذ الدكتور موريس تاوضروس المنشور بمجلة الكرازة – العدد ٢٧ – ٢٨ – ٤ يوليو ٢٠١٤.

أولاً: تجاهُل التاريخ الكنسي الشرقي الذي لم يعرف هذا الاصطلاح إلاَّ في عام ١٥٨١ وذلك في أجوبة البطريرك أرميا الثاني – بطريرك القسطنطينية على أسئلة أساتذة اللاهوت من جامعة Tubingen والتي نُشرت كلها بعنوان Augsburg and Constantinople.

ثانياً: تجاهُل الاختبار الإفخارستي في الليتورجية القبطية حيث "يُظهِر" الروح القدس الخبز والخمر بعد أن "نقل" كلاهما إلى جسد الرب ودمه.

ثالثاً: تجاهُل التسليم الكنسي في عظات كيرلس الأورشليمي (٣١٣ – ٣٨٦) وعظات ذهبي الفم (٣٥٤ – ٤٠٧)، ثم شرح الآباء لأسفار العهد الجديد.

نحن لا نبحث عن مصطلح تقني؛ لأن ذلك هو بحثٌ بلا جدوى، لأن هذا المصطلح غائبٌ تماماً، والتعبير اليوناني μεταβολη لا علاقة بالتعبير والمصطلح اللاتيني؛ لأنه يعني تحديداً انتقال أو تغيير Change وقد جاهر أساتذة اللاهوت في الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية مثل Dyobouniotes في كتاب السرائر النص اليوناني ص ٩٩ بذلك، حيث يذكر أن "المحاولات الفاشلة التي تمت في الكنيسة لكي تحدد وتنير تعليم التغيير لكي تجعل هذا التعليم مقبولاً للعقل، حُكِمَ عليها بالفشل. إن تعليم الكنيسة الرومانية عن التحول الجوهري غير مقبول بالمرة في الكنيسة الشرقية؛ لأن آباء الكنيسة علَّموا بأن الخبز والخمر ينتقل إلى جسد الرب ودمه "حسب شرح Androutsos (التعليم العقيدي للكنيسة، النص اليوناني، ص ٥٨).

ولا زلنا نسمع صوت الآباء في الليتورجيات الأرثوذكسية عند اليونان والروس والأقباط: "محولاً كلاهما بالروح القدس"، وعندنا في الليتورجية القبطية:

"ليحل روحك القدوس علينا
وعلى هذه القرابين ..
وينقلها ويُظهرها
قدساً لقديسيك".

الجوهر والعَرَض قضية فلسفية لا علاقة لها بالإيمان الأرثوذكسي:

يمثل الجوهر والعَرَض أحد مكونات فلسفة أرسطو الذي حدد الفكرة في موضعين:

الأول: كتاب Categories 2 a 13

الثاني: كتاب Metaphysics 2.2.2

وعندما يقول أُستاذنا د. موريس: إنه لا جوهر بلا عَرَض، فهذا حقٌ خاصٌ بالمخلوقات؛ لأن الجوهر الذي بلا عَرَض وبلا أي أعراض هو الثالوث القدوس. والجوهر تعني الكيان والحياة في الثالوث. وإذا قلنا: "ما هو كائن"، فيجب أن نكون على حذر من استخدام تعبير "ما هو موجود"؛ لأن "ما هو موجود" عائد على الخليقة كلها، ولذلك من الأخطاء العامة الشائعة عبارة: "ربنا موجود"، وهي تعني أن آخر قد أوجد ربنا.

والتحديد الفلسفي عند أرسطو، ثم فلاسفة العصر الوسيط: وليم William of Okham وتوما الأكويني ثم بعد ذلك ديكارت واسبينوزا وليبنز Leibnis وجون Locke وهيوم، ثم Kant كفيلٌ بأن يصيب أي قارئ أو قارئة لم يدرس الفلسفة بالدوار والتعب. لكن دون أن ندخل في التفاصيل والخلاف الفلسفي:

"الجوهر" هو المكونات الأساسية لأي كائن. أمَّا "العَرَض"، فهو الأعراض التي قد توجد، وقد توجد وتختفي.

انفصال الخرستولوجي عن الإفخارستيا في العصر الوسيط الأوروبي:

لعل كلمات الأستاذ اليوناني ديوبنيوتس عن فشل تحديد طبيعة تحول أو انتقال الخبز والخمر، تدخل القلوب، إذا تذكَّرنا الحقائق اللاهوتية الأساسية الآتية:

أولاً: هل اتحاد اللاهوت بالناسوت حَفِظَ أعراض الناسوت، وهي حسب الفلسفة اليونانية: الموت والطول والعرض والوزن ولون الجلد ..... الخ.

ثانياً: لقد تجلي الرب بالجسد على جبل طابور (حسب التقليد)، وكانت ملابسه تسطع بمجد اللاهوت أكثر من نور الشمس، فهل كان تجلي جسد الرب

عَرَضاً؟

ثالثاً: جراح الصليب، أكليل الشوك، طعنة الحربة ثم الموت، هل يمكن وصفها بالأعراض، وهل يمكن تصنيف المحبة الباذلة إلى جوهر وعَرَض؟

رابعاً: إذا كان الجسد قد صار جسد مجد الرب (فيلبي ٣: ٢١)، وتحوَّل الترابي إلى سمائي، وتحول اللحم والدم إلى ما هو روحاني (١كو ١٥: ٤٢-٤٤)، فهل يمكن لهذا التحوُّل أن يخضع للفصل بين "العَرَض" مثل لون وحجم الجسد، وبين "الجوهر"، وهو حقيقة الكيان الإلهي المتجسد الذي لا انفصال فيه بين اللاهوت والناسوت؟

حقاً، لا يمكن بالمرة تطبيق نظرية "الجوهر والعَرَض" على الثالوث، لأنه إذا كانت الأعراض السابقة مثل الموت والألم والتعب ... إلخ قد أُبيدت، فكيف يمكن - بعد تجلي ناسوت ربنا يسوع- أن نتصور أن عطاء الجسد الممجد ينتهي عند التقسيم العقلي الأرسطي لما هو جوهر وما هو عَرَض؟ فالجسد الممجد، هو ذات جسد الرب نفسه، "جسده الحقيقي". ولعل كلمة "الحقيقي"، وهي حسب ترجمة كنيسة مصر: "جسدي مأكلٌ حق، ودمي مشربٌ حق"، تعني أنه لم يعد هناك مكان لجوهرٍ أو عَرَض، بل هبة الحياة والخلود.

لقد ألَّه الرب ناسوته (راجع أثناسيوس الرسولي، الرد على الأريوسيين ٣: ٥٣، ٣: ٥٧)، حين أباد كل الضعفات الإنسانية التي يحسبها الفكر اليوناني الكلاسيكي "أعراضاً"، فقد وحَّد الرب إرادته بالإرادة الإنسانية الضعيفة لكي يُبيد هذا الضعف، ولكي يحصن الإنسان من رعب الموت (ضد أريوس ٣: ٥٧). وهكذا يمكننا أن نعزو تخبط الذين يريدون لنا العودة إلى مستنقع العصر الوسيط إلى أكثر من سبب، يحتل مركز الصدارة منهم: فصل الإفخارستيا عن تعليم آباء الإسكندرية الخريستولوجي، وتجاهل تأله ناسوت الرب.

وقد جاء رفض تأله ناسوت الرب، وبقاء هذا الناسوت المتأله ناسوتاً حقيقياً، كرد فعلٍ مضاد لتعليم الشركة في الطبيعة الإلهية، دون أن يَقَر في وعي المقاومين أنهم يضربون جذر الإيمان الأرثوذكسي محاولين قلعه والقضاء عليه.

وإذا كنا قد أشرنا إلى تأله ناسوت الرب في مناسبات سابقة، إلا أن ما يهمنا الآن هو أن نقرر أنه لا يوجد فرق بين قولنا: "جسد المسيح الممجد"، و"جسده المتأله"؛ لأن استخدام الليتورجية لتعبير "الذبيحة غير المائتة السمائية – الذبيحة الإلهية"، يؤكد تأله ناسوت الرب؛ لأنه صار الجسد المحيي.

وإذا كان "الإفخارستيا، جسد المسيح الممجد"، هو التعليم الذي لم نعد نسمعه من فراعين الكهنوت، إلا أن الأساقفة والقساوسة والشعب الأرثوذكسي يعرفون جيداً أن جسد الرب ودمه هو جسد المصلوب الحي القائم من بين الأموات؛ لأن هذا الجسد هو "**الجسد المحيي**"، وهو أحد أوصاف التأُّله الذي تؤكده تعبيرات الليتورجية: الذبيحة السمائية – غير المائتة – الإلهية. ولكن انفصال الخرستولوجي عن الإفخارستيا في زمان انهيار التعليم، جعل البحث عن حلول عقلية ترضي فضول العقل، أهم من العودة إلى التسليم الكنسي.

انفصال الخرستولوجي عن الإفخارستيا خطأ جسيم للعصر الوسيط ولحركة الإصلاح:

تم تقسيم اللاهوت في مدارس اللاهوت في الغرب، وانفصلت موضوعات لم يكن الانفصال فيها ضرورياً بالمرة، ولكن جاء تبويب وترتيب الفصول بتقسيمات ظلت سارية حتى القرن السادس عشر، وهو بداية عصر الإصلاح البروتستانتي، ولا تزال سارية في معظم كتب اللاهوت الغربي، وفي بعض كتب أرثوذكسية نقلت النظام الغربي دون وعي وعلى سبيل المثال:

– **التوحيد والتثليث**: بينما الواقع التاريخي الكتابي هو أن الثالوث هو الوحدانية الإلهية الكاملة التي على أساسها يُعلَن توحيد الله، أي أننا يجب أن نبدأ بالثالوث، وهو كمال التدبير لكي نشرح التوحيد، وليس العكس.

– **أُلوهية الابن**: وهي نصوص مختارة رُتِّبَت لإبراز أُلوهية الابن دون أن تؤكد أو تضيف أن الألوهة مستعلَنة في الناسوت، وأن ما استُعلِن في ناسوت الرب هو ما شَرَحَ حتى نصوص العهد القديم عن الحكمة أو اللوغوس، وليس العكس.

– **أُلوهية الروح القدس:** وهي على نفس المثال السابق، وأهمل الذين دافعوا عن أُلوهية الروح القدس عمل الروح القدس الإلهي في السرائر وفي الأفراد وعمل الروح القدس في استعلان الابن المتجسد.

– **الخرستولوجي:** وهو تأكيد اتحاد الطبيعتين وتفنيد الأوطاخية والنسطورية معاً والدفاع عن مجمع خلقدونية ٤٥١ وإهمال تام لما يُوهب لنا في سر الشكر حيث الرب الإله الحي المتجسد يوزع حياته علينا.

لذلك، علينا أن نتجاوز معاناة نفق العصر الوسيط، وأن نخرج منه إلى نور شرح القديس كيرلس السكندري لإنجيل يوحنا، وبالذات الإصحاح السادس، وهو يبدأ من الفصل الخامس من الكتاب الرابع لشرح إنجيل يوحنا عمود ٤٤١ من الأصل اليوناني مجلد ٧٢ من الآباء اليونانيين. ومن عمود ٤٤١ تباعاً سوف نقسم الفقرات من أجل الايضاح فقط، ونحيل القارئ على الترجمة العربية: نصوص الآباء ٤٢ شرح إنجيل يوحنا الجزء الثالث الاصحاحان ٦، ٧ – مؤسسة القديس انطونيوس – القاهرة، أغسطس ١٩٩٨ ابتداء من ص ٦٧ تباعاً تعريب د. جرجس كامل، وهي ترجمة جيدة جداً، وتمت مراجعتها على الأصل اليوناني والترجمة الانجليزية الحديثة:

Ancient Christian Texts, IVP. Commentary on John, Vol I, Cyril of Alexandria, 2013. Pp 196 ft.

الطعام الباقي للحياة الأبدية (يو ٦: ٢٧):

"الذي يعطيكم ابن الإنسان لأن هذا قد ختمه الله الآب" (يو ٦: ٢٧): "مَن يقدر أن يعطي البشر طعاماً يحفظهم إلى حياة أبدية؟ هذا أمرٌ يفوق طبيعة الإنسان ويليق فقط بذاك الذي وحده هو إله فوق الجميع .. إذ يقول إن ابن الانسان سوف يعطيهم الطعام الذي يقوتهم إلى حياة أبدية، يؤكد فوراً أنه مختوم من الآب، و"مختومٌ" هنا تعني "ممسوح" (أي الذي يُمسح ويُختم) أي أنها تُظهر (المسحة) أنه كائن بالطبيعة في الآب .. لأنه على الرغم من أنني أبدو كواحد منكم، أي إنسان له جسد، إلَّا أنني قد

مُسحت وخُتمت من الله الآب للمماثلة معه .. إنه حين يقول إن ابن الإنسان سيُعطى أمور الله وأنه قد خُتم، إذ هو صورة الله الآب، ولا يقبل الانقسام ... لكنه يُعرف نفسه ويريد أن ندرك عنه أنه هو أيضاً واحد. فالمسيح هو الواحد بالحق الكائن علينا، حاملاً رداءه القرمزي الملوكي، أعني جسده البشري... لأن المسيح هو واحد من كليهما معاً" (الفصل السادس من شرح إنجيل يوحنا ابتداءً من عمود ٤٧١).

أنا هو خبز الحياة (يو ٦: ٣٥):

"الخبز الذي من السماء هو المسيح الذي يغذينا لحياةٍ أبدية بعطية الروح القدس، وبالشركة في جسده واضعاً فينا الشركة في الله المتجسد، مبيداً الموت الذي جاء من اللعنة القديمة".

عمود ٤٧٤:

"فما الذي يعد المسيح به؟ هو لا يعد بما هو قابل للفساد، بل بالحري بهذه البركة εύλογια أي شركة جسده ودمه الأقدسين الذي يستعيد الانسان كله ويرده إلى عدم الفساد، فلا يحتاج أبداً إلى أي شيء (يُظن) أنه يدفع الموت عن الجسد، أعني الطعام والشراب .. جسد المسيح المقدس إذن يعطي حياةً لأولئك الذين يكون الجسد فيهم فيحفظهم جميعاً في عدم فساد، إذ يختلط بأجسادهم، لأننا ندرك أنه ما من جسد آخر سوى جسده هو الذي بالطبيعة الحياة".

هل بعد كل هذا يمكن فصل الإفخارستيا عن الابن، الحياة المتجسد؟ وهل هبة الحياة الأبدية يمكن أن تُقسم إلى جوهر وعرض؟ مستحيل لأن القيامة هي قيامة الانسان كله.

الكتاب الرابع من شرح إنجيل يوحنا عمود ٥٢٩ –٥٣٠:

"الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم" (يوحنا ٦: ٥٣).

"هو الحياة بطبيعته، لأنه مولود من الآب الحي، وجسده المقدس ليس أقل قدرة على أن يهب الحياة لأنه جسده وقد اجتمع[1] بما هو فوق الإدراك بالكلمة الذي يحيي الجميع، وعندما نذوق الجسد ننال الحياة في أنفسنا لأننا نتحد بالجسد كما باتحاد الكلمة الذي حل فيه" (راجع ص ٢٣٦ من الترجمة الانجليزية)".

وقدم القديس كيرلس بعد ذلك أمثلةً على الحياة التي يعطيها الجسد المحيي مثل إقامة ابن رئيس المجمع (لوقا ٨: ٥٤)، فقد أعطى الحياة كإله بواسطة قوة الأمر وبواسطة لمسة جسده المقدس، وكذلك إقامة ابن أرملة نايين "فقد لمس النعش وقال "أيها الشاب أقول لك قم" (لوقا ٧: ١٢–١٤)، فهو لا يعطي القيامة بالكلمة فقط، ولكنه يُعلن أن جسده الخاص هو جسد المحيي" (عمود ٥٣٠).

يوحنا ٦: ٥٤:

من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير" (عمود ٥٣١): "علينا أن نعجب بشكل خاص بالإنجيلي المقدس الذي يصرخ علانيةً "الكلمة صار جسداً" (يوحنا ١: ١٤)؛ لأنه لم يتردد في القول ليس الكلمة صار في الجسد، بل إنه "صار جسداً" لكي يوضح الاتحاد؛ لأن الجسد له في ذاته الكلمة الذي هو الحياة بالطبيعة. لهذا يقول: "وأنا أقيمه في اليوم الأخير" وبدلاً من القول: جسدي سوف يقيمه، أي يقيم مَن يأكل هذا الجسد، فقد وضع "أنا" أساساً؛ لأنه ليس مختلفاً عن

---

(١) الفعل اليوناني συντρεχω لا يعني مجرد اجتماع، بل هو اجتماع لرسم حدود التدبير إذ صار تجسد الابن الحدود الجديدة التي جاء بها اتحاد اللاهوت بالناسوت في الرب الواحد

جسده الخاص (من جهة الحياة الواحدة)، أي الطبيعة، لأنه يرفض تماماً أن يُقسَّم إلى قسمين وابنين بعد الاتحاد. و"أنا" التي نطق بها، سوف أكون فيهم، أي بواسطة جسدي، وسوف أقيم في اليوم الأخير كل الذين يأكلونه. وحقاً أنه من المستحيل على الواحد الذي هو الحياة بالطبيعة أن لا يهزم الفساد ويبيد الموت، وعلى الرغم من أن الموت قد ملك علينا بالتعدي، وأرغم الجسد بالضرورة على الفساد، إلا أن المسيح هو فينا بواسطة جسده، ونحن حقاً سنقوم".

هل يمكن تقسيم مَن قال: "أنا هو القيامة"، "أنا هو الخبز الحي"، و"أنا أقيمه في اليوم الأخير" إلى جوهر وعَرَض؟!!!

أولاً: ما هو جوهر وعَرَض أو أعراض الحياة التي يعطيها الابن لمن يتناول جسده ودمه؟ لقد غاب من العصر الوسيط أن الحياة الأبدية هي ذات حياة الآب والابن والروح القدس، ففي شرح يوحنا ٦: ٤٥ كل أعمال الله الآب مع البشر حسب إرادته، هي أعمال الثالوث القدوس كله، وهكذا أيضاً أعمال الابن نفسه، وكذلك أعمال الروح القدس (عمود ٥٠٩).

ثانياً: لقد جرى فصل الثالوث عن الخرستولوجي، وتم فصل اللاهوت عن الناسوت حسب التعليم النسطوري الذي أعاده الأنبا شنودة الثالث، عندما نتناول السر المقدس. وتم فصل عمل الابن عن عمل الروح القدس، وهكذا يعود الفصل لكي يبني لاهوتاً مزيفاً تنازل عنه الغرب، وللأسف وجد من يدافع عنه في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، استناداً إلى تعريف أرسطو للكائنات وتقسيم ما هو كائن إلى جوهر وعَرَض السابق على استعلان الله الكلمة في الجسد، الذي لم تكن أعماله الإنسانية جوهراً وعَرَضاً، ولم يكن خبزه الحي، أي شخصه وأُقنومه الواحد غير المنقسم إلى لاهوت وناسوت، ونسى هؤلاء أو تناسوا أن هذا التقسيم يصيب الانسان المشترك في سر المسيح بخسارة الحياة الأبدية.

ثالثاً: عندما سُئل أستاذنا د. موريس تاوضروس: هل استعمل الآباء كلمة الاستحالة الجوهرية؟ لم يقدم إجابة شافية. ودون الخوض في معارك الألفاظ، لقد صار

جسده واهباً للحياة الأبدية، وهنا يسقط تماماً كل تمييز بين الجوهر والعَرَض، ويجب أن يستقر في أذهاننا تماماً أنه:

١- لا يوجد جوهر وعَرَض في حياة متألهة تهب الحياة لكي من يشترك فيها.

٢- لا يوجد جوهر وعَرَض؛ لأن ذات الحياة الأبدية هي ذات حياة الثالوث القدوس.

تُرى هل سنعود إلى التعليم الأرثوذكسي عن "التحول السري"، أو "نقل الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه بالروح القدس"، وبالتالي تستعيد الكنيسة القبطية الأرثوذكسية إيمانها المودع في الليتورجية، أم أن سيطرة لاهوت العصر الوسيط سوف تسود طالما أن ثلةً تجهل التاريخ والآباء والليتورجية لها صوتٌ عالٍ؟

+ + +